التطلّــع إلى النبوّة
دراسة في أخبار أُميّة بن أبي الصّلت كما وردت في كتاب " الأغاني"

الاستاذ المساعد الدكتور
لؤي حمزة عباس
جامعة البصرة – كلية الآداب

الدراسة السرديّة: مقــدمة

على الرغم مما قدمه الدرس النقدي العربي منذ مطلع ثمانينيات القرن الماضـــي من إنجازات في قراءة السرد العربي القديم، يظل أمام هذا الدرس الكثير لإنجازه لاســيما في دراسة المراحل المبكّرة من حياة السرد العربي، على الرغم مما يكتنــف مثــل هــذه الخطوة من صعوبات ربما توجهت في معظمها للنص السردي نفسه وقد واجــه خــلال مراحل زمنية طويلة العديد من أساليب التهميش والإقصاء، مثلمــا لقتــه غيــوم التعتــيم والضبابيّة وهو يُلحق، في معظم الأحيان، بسواه من النصوص والأحداث ويوجّه للتعبيــر عن مقولات خارجيّة، كأنه لايملك أن يقول كلمته ويُنتج أحداثه التي تنسجم مع مكنوناتــه ونظم صياغته بما يتقاطع، في أحيان، مع ما يتطلبة عصر إنتاجه من مقولات وأحداث.

وإذا " كانت البنية الثقافية، بقيمها الدينية والإجتماعية تحول دون رواية وحدة سردية، تنافي النسق السائد من القيم، كما أنها قد تضيف وحدات جديدة تفرضها تلك البنية ذاتهــا، وتحتاج إليها، وتبالغ فيها كالوحدات العجائبيّة والشبقيّة"(١)، فــإن بمــستطاع النــصوص المنتجة تحت ضغط إعادة التوجيه بما تشتمل عليه من حذف وإضافة أن تُحرّف مقولاتها الأولى وتغيّب غاياتها ألأصليّة، لكنها تحافظ، من جهة أخرى، على مــا يعتمــل ضــمن

نُسجها النصيّة من إشارات تمنح الدارس فرصة فحص ما تُبنى عليه هذه النصوص من "شبكة تجميعية معقدة من الوحدات السرديّة ذات الجذور المختلفة"(٢)، ليُقترح عندئذ موقع هذه النصوص في تاريخ السرد العربي تبعاً لما تعتمده من وسائل وأساليب في تقديم مادتها الحكائية، أي أن تاريخ السرد سيغدو، بجملة أعم، تاريخ تحولات شكليّة بالدرجة الأساس، لذا سيكون من الضروري بالنسبة للدراسة النقديّة أن تحدد متجهاتها وهي تسعى لاستكشاف النصوص ومعاينة خصائصها، مثلما ستؤمّن عبر هذه المتجهات إمكانية لوعي طبيعة العلاقة بين النصوص السرديّة وبين سياقات إنتاجها، فالنصوص لاتولد ولاتنمو ولا تتطوّر خارج جواذبها السياقية، الأمر الذي يمكن معه النظر إلى خارطة السرد العربي وقد أخذ كل نوع من الأنواع السرديّة موقعه عليها بناءً على ما تقترحه فاعليته النصيّة وهي تنهض، بدورها، على مجموعة من الخصائص الصياغيّة المختلفة لا بين نوع سردي وآخر بل بين نصوص النوع الواحد، كما في نصوص الخبر العربي التي تُمنح عبر التباين الواسع لصياغاتها موقعاً بالغ الأهمية في السرديّة العربية بالنظر لما تحققه من إسهام في صياغة الأنواع الأخرى وهي تنشأ بالدرجة الأساس على (فاعلية إخبار) " ترتبط على نحو مباشر بحركة السياق الثقافي، وتوجّه عناصرها توجيهاً يستجيب لإيعاز التأليف ويعمل على تحقيق أهدافه وهو يقدِّم، في كل مرّة، مكوّناً بنيوياً من مكونات النصوص ويؤخر آخر"(٣).

يصعب إدراك هذه الحركيّة بغير النظر الفاحص للمكونات السرديّة وهي تعمل في نسيج واحد، إذ أن حياكة السرد لا تؤثر بعنايتها مكوّناً دون آخر، لكن لها، بالمقابل، أسباباً وموجبات لا تنفصل بمجملها عن تواريخ النصوص وعن مواضعات أنساقها وهي ترعى خصائصها النوعيّة تحت شبكة معقدة من التواصل والتفاعل بين المرجعيات بكل مكوناتها وبين هذه النصوص(٤)، ليغدو النص السردي، بناءً على هذا التصور، منتجاً ثقافياً يمكن له أن يقول الكثير عن البُنى التي أسهمت بإنتاجه، بما تنطوي عليه عملية التأليف من بُعد تبادلي، فالثقافة بإنفتاحها واتساع آفاقها تعمل على إنتاج النصوص وتحديد متجهاتها، مثلما تعمل النصوص على قول الثقافة وكشف نُظمها، لتُعد هذه التبادليّة مؤشراً نوعيّاً لفاعلية النصوص السرديّة في تجاورها وتقاطعها وتداخلها ولفاعلية الثقافة وهي تُنتج عبر شبكة معقدة من النصوص، يمكن لهذه الشبكة أن تنشغل بالإجابة عن أسئلة جزئية تتعلّق

بمعياريّة النصوص نفسها وهي تكشف نوعاً أو تحدد إتجاهاً، مثلما يمكن لهـا الإنـشغال بالإجابة عن أسئلة تتعلق بالفاعلية الثقافية وتحولاتها وهي تُقيم حوارها مع أنساق عصور إنتاجها، ومن المهم الإشارة إلى أن النصوص تُحافظ في مجالي المعاينـة النقديّـة علـى قابلياتها التركيبيّة، مثلما تحافظ عبر هذه القابليات على تعقيدها، لـيمكن دراسـة النُـسج السرديّة ومعاينة عناصرها للوقوف على قيمها الثقافية، فلا بد من معالجة الـسردي مـن منظور تعالقه مع الثقافي، واكتشاف قدرة كل منهما في الإفصاح عن الآخـر، إذ يظـل السردي محكوماً بمجاله الثقافي، هذا المجال الذي يرعى شبكة لا نهائية من الخطابـات، نصيّة وغير نصيّة.

ـ الإخبار، التمثيل، التخييل:

ستكشف النصوص السرديّة، عبر المعاينة النقديّة، عن شخصياتها سـواء أكانـت أخباراً مفردة أم منظومات خبريّة، مثلما ستشير إلـى أصـولها ومراجعهـا، فالفاعليـة الصياغيّة في كل نص هي، بشكل أو بآخر، المعبّر الفعلي عن سيرته، إذ أن كل نص من نصوص السرد العربي القديم، بهذا المعنى، يحمل سيرته معه، ما خفي منها وما ظهـر، وبها ومن خلالها يمكن أن يقول عن نفسه مثلما يقول عن سياقاته المنتجة.

وإذا كان الخبر المفرد قد وجّه، في معظم ألأحيان، وجهة تفسيريّة جراء إرتباطـه المباشر بواقعته التاريخية، فإن اشتغال هذا الخبر ضمن(منظومة) يمنحه فرصة للحركـة والتحوّل من(الإخبار) إلى(التمثيل) و (التخييل)، " وإذا كان (الإخبار) قد مثّـل القاسـم المشترك بين مجمل أنواع السرد العربية، فإن الأخيرين يكونان مسؤولين بدرجة واضحة عن إنتظام مميزات النصوص"(٥)، فالمساحة الصياغية التي يشغلها كل مـن (التمثيـل) و(التخييل) تبدو أوسع، بالضرورة، من مساحة(الإخبار) بما يؤمّن لها مجالاً دلالياً يمكّنها من تقديم وصف إثنولوجي(بانورامي) لمكوناتها الثقافية، ويؤمّن لها حـواراً أعمـق مـع أنساقها، هذه الأنساق التي شهدت خلال مراحل مختلفة من حياة السرد العربـي مظهـراً نزاعياً تجسّد، على نحو واضح، من خلال الصياغات النهائية للأخبار وقد خضعت لأكثر من طبيعة ثقافية عملت كل منها على توجيهها وجهة خاصة تناسب معطياتها وتنسجم مع

أهدافها، بما يمكننا من إعادة قراءة بعض من المنظومات الخبريّة وهي تكثّف مراحل إنتاجها وتسهم بإعادة قراءة وقائعها لتغدو تدويناً آيديولوجياً للعصر، تعيد القراءة، بشكل ما، تشكيلها عبر إعادة رصد منظومات أخبارها وهي تقدم عنصراً سرديّاً وتؤخر آخر، لتخضع حركة العناصر والمكونات، عندئذ، لستراتيجيّة ثقافية يصعب إدراك أثرها بغير النظر الفاحص للعناصر والمكونات في ثباتها وتحوّلها.

ـ أميّة بن أبي الصَّلت: المنظومة الخبريّة

شغلت شخصية أمية بن أبي الصلت موقعاً إشكالياً في ثقافة العصر الجاهلي، يتسع هذا الموقع ويتعقّد كلما إقترب من زمن الدعوة الإسلامية، فقد أعدّ أميّة نفسه لتلقّي النبوّة وعاش مترقباً علاماتها بعد أن أحاط بها إحاطة معرفيّة عبر أكثر من سبيل فقد نظر في الكتب، ولبس المسوح، وحرّم الخمر، وشك في الأوثان، والتمس الدين(٦)، كما جالس الرهبان والأحبار وقرأ معهم(٧)، حتى قيل أنه كان حنيفاً على دين إبراهيم واتباعه وملته(٨)، لتسهم هذه السبل ببعديها التاريخي والمعرفي بإنتاج شخصيّة ذات حضور ثقافي يُهيء لها أفقاً تأملياً ينتقل بها من الخاص إلى العام، من الذاتي في معاينة التجربة وإعادة إنتاجها، إلى الموضوعي بشموله الإنساني والكوني، الأمر الذي إنعكس على منجزه الشعري فغدت قصيدته منطلقاً " لمواكب الحكمة والتأله، وأحاديث القيامة والحساب"(٩)، مثلما غدت إنموذجاً لمعرفة عصره التي وجدت تصديقها في أحاديث الرسول محمد(ص)(١٠)، وهي شخصيّة لم تكن لتمرّ في أسفار الخبر العربي مروراً يكتفي بمحمولاتها التاريخية من دون أن تُمنح من العناية السرديّة ما يُنظم أخبارها ويوسع من مجالها الحكائي ضمن منظومة تتعدد فيها الوقائع وتتشابك المحمولات، كما تخضع العناصر لفاعليّة صياغيّة تؤكد قدرتها في التعبير عن إمكانات عصرها الثقافية، فلم تنغلق أخبار أميّة بن أبي الصلت على خصوصيّة صاحبها، خصاله وإقتداره ومعارفه، التي جعلت منه داهية من دواهي ثقيف، بل عملت، في إشارة لقدرة النسق الثقافي على إعادة الإنتاج والتوجيه، على أن تُصبح جزءاً من منظومة سرديّة أكبر هدفها تأكيد صدق العلامات الدالة على بعثة الرسول محمد(ص)، بغير أن تقلل من شأن أميّة أو تكذّب دعوته لنفسه، إذ سيصبح أميّة نفسه علامة في مجال واسع من العلامات التي تملأ

بمعطياتها السرديّة مساحة ما قبل البعثة النبويّة إلى جانب منظومات خبريّة أخر أسهمت بإضاءة هذه المساحة وعُدّت نبوءة بالبعثة المحمديّة، وقد توجهت كل من جانبها لرصد علامات البعثة، بناءً على ما سبقها من حوادث والتبشير بها، من هنا تكون كل منظومة خبريّة من هذه المنظومات جملة في سياق سردي، ويشكّل كل حدث من أحداثها، بما يميّزه من فاعليّة صياغيّة، توجيهاً يشحن السرد بظلال مضافة.

ـ مجموعتان خبريّتان:

١. المجموعة الخبرية الأولى: تكرار الصورة

إذا ما تأملنا الفاعليّة الصياغيّة لأخبار أميّة بن أبي الصّلت كما نُضّدت في كتاب(الأغاني)، فإننا سنكون بمواجهة مجموعتين تتوجه كل منهما وجهة خاصة، تهتم ألأولى وهي تتكون من ثلاثة أخبار، بالذهاب مباشرة إلى الحدث، حدث النبوّة الذي يشكّل ثيمة مركزيّة تدفع أميّة لدخول الكنائس ولقاء الرهبان، لكنه يعود في نهاية كل خبر كاسفاً متغيّر اللون بعد إنحراف العلامة النبويّة عنه، فالخبر الذي يُفتتح على لسان راوٍ مفارق، يؤدي مادته عبر سرد موضوعي ينهض على المعلومة المتناقلة " كان أميّة بن أبي الصّلت يلتمس الدين ويطمع في النبوّة"، سريعاً ما يُنجز مناقلته ليتواصل عبر سرد ذاتي يعلو فيه صوت أميّة متحدثاً عن نفسه " فيئستُ من النبوّة، فأصابني مارأيت، إذ فاتني ما كنت أطمع فيه"، ومابين المفتتح والمختتم تتعدد العلامات وتختلف بين خبر وآخر، ففي الخبر الأول تنص على ما يكون بعد عيسى عليه السلام من رجعات، وهي ست "وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة..فلما رجعت ثانية أتيته فقال: قد كانت الرجعة، وقد بُعث نبي من العرب"، أما في الخبر الثاني فالعلامات تتوجه لبيان(رئي) الشاعر، جنيّه الذي تزعم العرب أنه يُري مصاحبه كهانة وطباً ويلقي على لسانه شعراً، والتدقيق في صفاته لأقرار مفارقته (المَلَك) الذي يأتي النبي، أما في الخبر الثالث فتتكرر حكاية الذهاب إلى الشام مشكّلة بُعداً إطارياً يوحّد الأخبار ويُنظم عملها، وهو يستند إلى نوعيّة جديدة من العلامات هي السن والمال التي تؤكد إنحراف النبوّة عن أميّة إذ " أن صاحب هذا الأمر ليس بشيخ ولا ذي مال"، ومن الملاحظ أن هذه المجموعة من الأخبار تنهض في معالجتها السرديّة على ركائز موضوعيّة مشتركة يمكن إجمالها في النقاط الآتية:

أ. مقاربتها زمن البعثة النبويّـــــة.
ب. ذكر بعض صفات النبـــــــي.
ج.الإستناد إلى المعلومة التاريخيّة.

ففي النقطة الأولى تصرّح الأخبار بقرب زمن البعثة النبويّة عبر تطلّع أميّة، حتـــى تلتحم به عبر غياب النبوّة عنه، وهي تحافظ بين التطلّع والغياب على مجرياتها الـــسرديّة في تلقي أميّة نبأ بعث النبي، فهو يُبلّغ النبأ من داخل الأخبار على لسان الراهب بما يؤكد مصداقيّة الراهب وصدق العلامات، وبما يُحيل إلى ما تنطوي عليه البعثة النبويّة من بُعد معرفيّ يُحاط به معنوياً قبل أن يكتمل التصريح بالدعوة لتنتقل من السر إلى العلن، وهـــو ما يرى فيه الدكتور طه حسين شكلاً من أشكال النحل "يُقصد به إلى إثبات صحة النبـــوّة وصدق النبي"(١١)، متلما تُعتمد بعض صفات الشخصيّة النبويّة مثـــل الـــسن والمـــال، وصفات لوازم النبوّة كالمَلَك، محققة هي الأخرى مفارقتها لصفات أميّة ورئيه، لكن تلـــك الأخبار لا تتشكّل والعلامات لا تنتظم إلا بالإستناد إلى ما يتوفر مـــن معلومـــات، وهـــي تحافظ في صياغتها على فاعليّة (إخبار) توجّه كلاً منها وجهة محددة فيغـــدو كـــلُّ خبـــر تنويعاً سرديّاً لغاية واحدة، وهو ما يكشفه الإطار الذي يُهيء في تماثلـــه فـــضاءً نـــصيّاً مشتركاً لإنتاج التنوع العلامي داخل الأخبار، الأمر الذي يُنجز مع الخبر الثالث تلخيـــصاً للمعطيات الإطارية السابقة في جملة مثل(ثم ذكر نحوه) مختصراً مساحته اللغويـــة فـــي سكوته عما تكررمن الأحداث وفي إقراره بتطابق الأُطر وتشابه مكوناتها على الرغم من تغيّر الإسناد، إذ تظل المهمة ألأساسيّة للرواة هي توسيع مجال العلامة النبويـــة ورصـــد حركتها بين أميّة والرسول الكريم(ص) إختلافاً واتفاقاً، انفصالاً ومطابقة، أكثر مما تهدف لتقديم بنية خبريّة مضافة، عبر نسخ عناصرها وتكرار صورها، فالإشتراك بين الأخبـــار الثلاثة يتعدى بعض الركائز الموضوعيّة إلى الخصائص البنائية للخبر التي يمكن إجمالها في النقاط الآتية: :

أ.الإفتتاح: الذهاب في ســـفر

خبر١– كان أميّة بن أبي الصلت يلتمس الدين ويطمع في النبوّة، فخرج إلى الشام
خبر٢– خرج أميّة في سفر فنزلوا منزلاً
خبر٣– إن أميّة وأبا سفيان آصطحبا في تجارة إلى الشام

ب. التوجّه إلى كنيســـــــة

خبر١- فمرّ بكنيسة

خبر٢- فأمّ أميّة وجهاً وصعد في كثيب، فرفعت له كنيسة فانتهى إليها

خبر٣- ثم ذكر نحوه

ج. لقاء الراهـــــــــــب

خبر١- إن ها هنا راهباً عالــماً

خبر٢- فإذا شيخ جالـــــــــس

خبر٣- فخرج من عند الراهب

د. تأكيد الراهب على غياب العلامة عن أميّة

خبر١- أخبرني أنه تكون بعد عيسى عليه السلام ست رجعات

خبر٢- فقال لأميّة حين رآه: إنك لمتبوع، فمن أين يأتيك رئيك؟

خبر٣- وأخبره أن الأمر لرجل من قريش

هـــ.الإختتام: العودة إلى رفاق السفر لإخبارهم بما جرى

خبر١- ثم خرج اليهم كاسفاً متغيّر اللون... ثم خرج اليهم أسوأ من حاله الأولى

خبر٢- وأتى أميّة أبا بكر فقال: يا أبا بكر، عَمِي الخبر

خبر٣- فخرج من عند الراهب وهو ثقيل. فقال له أبو سفيان: إن بك لشراً، فمـــا قصتك؟

تعمل الأخبار، بذلك، على توطيد حضورها عبر ما يحدث لصورها من تكرار يدفع بهـــا إلى مجال كنائي ينغلق الشاعر فيه عن ذاته ويصمت عن خسرانه، وهو يستعيد مع كـــل خبر رحلته إلى غياب العلامة، فالأخبار تُنجز عبر توجهها الكنـــائي مماثلتهـــا الحكائيـــة مؤكدة بُعد المسافة بين أمية والنبوّة، مثلما تؤكد، على نحو متلازم، قرب المـــسافة بـــين الرسول محمد(ص) والنبوّة، لتعلن المجموعة الثانية من الأخبار مفارقة كليـــة مواجهـــة بمطابقة كلية متحققة بالبعثة المحمدية.

٢- المجموعة الخبريّة الثانية: المكوّن العجائبي

تهتم المجموعة الخبريّة الثانية، على العكس من المجموعة الأولى، بتنويع أخبارها وتطوير قدراتها على إلتقاط حوادث مفارقة تشكّل كل منها إضافة موضوعيّة تسهم إلى حد بعيد بتجسيد شخصيّة أميّة بن أبي الصلت ومنحها موقعاً خاصاً في ثقافة عصرها، وهي وإن كانت تهتم في بعض منها بموضوعة النبوّة وغيابها عنه إلا أنها تعمل على نحو واضح على تمثيل صفاته الخاصة، لنكون مع كل خبر من أخبارها الأربعة بمواجهة سمة معرفية أو أكثر، بما يمنح الأخبار مساحة سرديّة أكثر إتساعاً تمكنها من إستيعاب التعقيد الحاصل في نسائجها وتهيء لكل منها المجال للإلتحام في بُعد تركيبي مع باقي الأخبار، فالخبرالمفرد، في هذه المجموعة، لايُكرر ولايُلخص ولايذوب في مجموعته الخبريّة، بل أن المجموعة تعمل عبر الفرادة الموضوعيّة والصياغيّة لكل خبرمن أخبارها على إقامه نوع من التواشج السردي بين هذه الأخبار، يُغذي كل خبر منها الأخبار الأخرى بطاقة تخييلية مضافة ويؤمّن لها فرصة الإنتقال بوحداتها من المرئي والمعيش إلى ما يُعد تجربة خاصة، مغلقة على صاحبها، فهي تعوّل على قدرة قدرة المكوّن العجائبي في أداء تجاربها، هذا المكوّن الذي يعالج مجالاً فوق طبيعي في رصده الظواهر الخارقة وإعادة إنتاجها في الأدب، وهو لا يتميّز بخصائصه الخطابيّة وببنية الحكي واللغة فحسب "وإنما هو رؤية مغايرة للأشياء... يحطم تلك الرؤية التبسيطية الفاصلة بين الواقع واللاواقع، بين المرئي واللامرئي"(١٢)، ولا يكتفي بقبول قوانين الواقع في تفسير الظواهر الموصوفة، وإنما يظل بحاجة إلى قوانين أخرى يمكن بها تفسير وفهم تلك الظواهر، وإذا كانت المجموعة الأولى من الأخبار قد تشكلت بوصفها شواهد حكائية يُستدل بتكرارها على صحة مبدأ خلقي أو يُبرهن من خلالها على غاية معيّنة، فإن المجموعة الثانية تعمل على إنتاج وتوجيه براهينها الخاصة التي تتشكّل شخصية أمية بن أبي الصلت بما عُرف عنها من سمات تخييلية وتمايز معرفي بالإستناد إليها، بما يتطلّب تأمين عناصر سرديّة مضافة يكون بمستطاعها التحوّل بطبيعة الحدث والإنتقال بمظاهره الصياغيّة، فقد شهدت الشخصيات تحولاً نوعياً لم تكتف معه برفيق السفر والراهب وأمية بينهما متلقيّاً وناقلاً، بل إنقسمت في تحوّلها قسمين:

أ- شخصيات بشريّة:

أولاً: شخصيات قريبة من أمية:

الأخت، بنتا أمية، الندماء.

ثانياً: شخصيات بعيدة عن أمية:

الراعي.

ب- شخصيات غير بشريّة:

أولاً: شخصيات طبيعية:

الشاة، الغراب.

ثانياً: شخصيات غير طبيعية:

عظاية(= جارية يتيمة)، عجوز(من الجن)، طائران.

مثلما شهد عنصرا المكان والزمان تحولات نوعية، فلم تعد الصحراء المكان الوحيد لوقوع الحدث، كما لم يعد الحدث مرتبطاً بالسفر ومبنيّاً في إطاره، بل شكّلت أماكن مضافة مثل بيت أخت أمية وقصر غيلان بالطائف مساحة واقعية لأحداث تظل خارج كل تفسير واقعي وهي تتحرّك بالزمان من الزمن الطبيعي إلى الزمن الباطني، زمن الأحلام والتنبؤات، بما يمنح هذه المجموعة من الأخبار فرصة لإضاءة دواخل الشخصيّة وهي تعبّر عما ترى وتسمع مما لايملك الآخرون رؤيته أو سماعه، لتحقق بقدراتها الصياغيّة تمايزاً لايكتفي بالإستجابة لغائية ثقافية محددة بل يعمل، إلى جانب إستجابته، على رصد غاياته وتحقيق أهدافه التي تبدو إلى حد ما إنتاجاً لوقائع ومجتزآت سيرية يظل التطلّع إلى النبوّة أحد عناصرها المولّدة، لكنها تنحرف لتُنصت إلى صوت أمية وتتامل سماته وهي تُنتج مجالاتها التعبيرية عبر شحن نصوصها بطاقة تخييلية تمكّنها من إحتواء بعض من أخبار المجموعة الأولى كما في خبر عجوز الجن الذي ينطوي على خبر رئي الشاعر ومفارقته للملك، مع تغيير على الصورة التي ورد بها في المرّة السابقة، وعلى الرغم مما تتميّز به الأخبار العربيّة بشكل عام وأخبار كتاب (الأغاني) بشكل خاص من تكرار نصي ومعنوي، إلا أن الدارس يمكن أن ينظر لما ينطوي عليه تكرار معيّن من دلالة وهو يُقدم تقنية ضمن منظومة خبريّة محددة، فلا يكتفي خبر عجوز الجن بإعادة خبر رئي الشاعر

إعادة نصيّة بل إنه يغيّر من مجرياته الوصفيّة ومن أسلوب ورود العلامة محتفظاً بالعلامة نفسها التي تؤدي دوراً أساسياً في إنتاج الخبرين، بما يكشف عن أهميتها في إستحضار أمية، إذ أنه لايوجد في خبر إلا مترقباً لها أو باحثاً عنها، لكن الخبر لايتم ولا يُنجز وظيفته الثقافية إلا بانحرافها عنه، وهو ما يتطابق عى نحو كامل مع المجموعة الخبريّة الأولى، لكنه لا يحقق إلا مطابقة جزئية مع المجموعة الثانية التي تهتم بملاحظة أمية خارج مجرى العلامة للنظر في قدراته التي هيأت له ترقب النبوّة، والدخول في مجالها العلامي، الأمر الذي يُحقق فيه المكوّن العجائبي حظوراً في تنظيم العناصر السرديّة ورعاية ما ينشأ بينها من علاقات جديدة تفيد من معطيات عالم الصحراء، مثلما تفيد من معارف إنسانها، فالقيافة ومواجهة الجن ومخاطبة الحيوان أوجه من ممارسة بشريّة واسعة إقترحتها الطبيعة ونظمتها الثقافة في أنماط من الخبرة حتى غدت سمات مميزة لأناس دون سواهم، وهو ما تسعى ألأخبار، في بعدها التخييلي، لإضافته إلى الرصيد المعرفي للشاعر الذي ترتقي به قدراته لإدراك منيّته، وهو ما لا يُنجز إلا بالمرور بالبعثة النبويّة التي تُشكّل مدخلاً لموته مثلما شكّل إنتظارها وترقب علاماتها غاية لحياته: "سمعت في خبر أمية بن أبي الصلت، حين بُعث النبي صلى الله عليه وسلّم، أنه أخذ بنتيه وهرب بهما إلى أقصى اليمن، ثم عاد إلى الطائف"، إن البعثة لا تؤرخ لحدث منفرد من أحداث حياة أمية، ولاتوثّق واقعة من وقائعها، بمقدار ما تؤطر حياته في بعديها التاريخي والمتخيّل وهوما يتواشج على نحو بعيد، فالخبر سريعاً ما ينحرف من التاريخ إلى التخييل ليخلق مساحته السرديّة بناء على فاعلية المكوّن العجائبي وهي توجّه الحدث لتلقي أمية نبوءة موته عبر مخاطبة الغراب له، وعلى الرغم من كون السارد مغايراً في الخبر، والعجائبي متطلّب لراوٍ ذاتي يُحقق من خلاله درجة عالية من الإقناع، فإن موت أمية تحقيق لعجائبية الخبرالتي لاتتم إلا بعد إخبار من الغراب، وتأكيدٍ في موت الغراب نفسه، فالموت الفعلي الحاصل ينفي عن الحدث كل تفسير إستعاري بعد أن ينقله من المجاز إلى الحقيقة، وهي حقيقة يُنظمها الخارق ويؤمّن عملها في سبيل " قبول قوانين جديدة للطبيعة، يمكن أن تكون الطبيعةُ مُفسرةً من خلالها"(١٣)، بما يُجسد حضور العجائبي على مستوى الموضوع وهو يغيّر مسار الخبر عبر تجلي الظواهر الخارقة وتحكّمها بمجرى الأحداث، وعلى مستوى اللغة، فإن لغة الخبر تُتلقى على حقيقتا مهما

بلغت درجة مجازيتها(١٤)، أي أن المجاز، بجملة أخرى، يؤدي مهمات الحقيقة ويلبس لبوسها في فهم وتوجيه ألأحداث سواء أقبلت قوانين الواقع في تفسير غوامضها أم لم تُقبل.

مثلما يتحقق العجائبي في خبري عجوز الجن والطائرين بحكم ما ينطويان عليه من ظواهر خارقة بالدرجة الأساس، بالإضافة إلى ما يحدث من تداخل الوعي واللاوعي في إدراك الحدث، خصوصاً في خبر الطائرين إذ يبدو اللاوعي فيه حقيقياً بالنظر لما يميّزه من قوّة في إنتاج الخبر وتوجيه الأحداث، فليس من فاصلة تباعد بين الحدثين الواقعي وغير الواقعي، إن ما يسهم بإنتاج العجائبي هو الذهاب التلقائي للواقعي باتجاه الخارق الذي يُقدم عبر سرد الراوي نفسه: "دخل يوماً أمية بن أبي الصلت على أخته وهي تهيء أدماً له، فأدركه النوم فنام على سرير في ناحية البيت. قال(١٥): فأنشق جانب من السقف في البيت، وإذا بطائرين..." لتتساوى عبر (حكاية الأقوال) درجة حضور الشخصيّة ومسؤوليتها في الإدلاء بكلامها، فمايقوم به الراوي من نقل يؤمّن لشخصيتي أمية وأخته شكلاً تُعطيان فيه الكلمة من دون أن تخضع الضمائر والأزمنة في كلامهما لتدخل أو تبديل(١٦)، مما يمنح الدور للشخصية مدار الحدث لتقول، وما يمنح الشخصية المشاركة دوراً مماثلاً تؤكد فيه وقوع الخارق وتنطق بشهادتها عنه، والشخصيتان، إلى ذلك، لا تقعان في البلبلة ولا تنتابهما الحيرة والتردد في تصديق الحدث، بل إن الأخت تتسلم زمام الروي لتكمل سرد الواقعة متحدّثة عما رأت: "ثم آنطبق السقف وجلس أميّة يمسح صدره، فقلت يا أخي ، هل تجد شيئاً؟ قال:لا، ولكني أجد حرّاً في صدري"، حيث تقف الإعتيادية الآمنة للحدث من جانب الشخصيتين بمواجهة الخارق، تملأه وتحتشد به، حتى ليبدو الخارق، في منظومة أمية بن أبي الصلت الخبريّة، وجهاً من وجوه التعبير التي تسعى الثقافة من خلالها لتنظيم خطاباتها وتأمين مجالات عملها.

- تركيب:

١- تتشكل المنظومة الخبريّة عبر مجموعة من الأخبار يجمعها توجه مشترك في إضاءة مجال سردي محدد، ينمو هذا المجال ويتعقد بإنتقال الأخبار، في معالجتها محمولاتها، من(الإخبار) إلى (التمثيل) و (التخييل).

٢- إذا كان (الإخبار) يغطي مساحة صياغية مهمتها نقل وإبلاغ محتوى معيّن، فإن (التمثيل) و (التخييل) يتحققان بفعل ما تشهده العناصر الصياغيّة لأخبارالمنظومة من تعقيد يمكّنها من الإنفتاح على مساحة سرديّة أوسع، لاتكتفي فيها بأداء المعلومة بل تعمل على النهوض بالطريقة التي تقول فيها معلومتها، فلا تُستحضر الأخبار للنظر فيما يقف وراءها مثل العلامات النبويّة في أخبار أميّة بن أبي الصلت وهي تشكّل الأحداث لتُنزع عنه واحدة إثر أخرى، بل تعمل على بناء مجالها الخاص، داخل منظومتها الخبريّة، فتضيف لرصيدها بُعداً تخيلياً يخترق المرئي والمحسوس لاقتراح عوالم مضافة.

٣- بالنظر للطبيعة البنائية المكونة لمنظومة أخبار أميّة بن أبي الصلت، وقد إنقسمت مجموعتين، فإن هاتين المجموعتين تختلفان في الطريقة التي تقدّم بها كل منها شخصية أميّة، تبعاً للدرجة التي تتكشف فيها هذه الشخصيّة وتُضاء بها أعماقها، وطالما أن الشخصيّة، أية شخصيّة، لاتكشف دخيلتها إلا بالإلتفات إلى ذاتها، والإنصات إلى صوتها، والنظر إلى مياهها الداخليّة، بوصفها أقدم الطرائق وأوضحها لتقول الشخصيّة ذاتها، فإن أخبار المجموعة الأولى لاتكتفي بالإنشغال بالعلامة النبويّة فحسب، بل تسلب شخصياتها حق أن تقول إحساسها، عدا ما يتطابق منه مع زوال العلامة، وبما يُعد تعبيراً مباشراً عن هذا الزوال، على العكس من أخبار المجموعة الثانية التي تُنصت، تبعاً لطبيعتها، إلى الصوت الداخلي لأميّة وقد تلبَّسه الشعور بالخسران، وهي، إلى ذلك، تصعّد من قابليتها التخيلية لتُنجز خاتمة لحياة أميّة تتناسب وذلك الشعور. إنها تُنجز، عبر فاعليّة المكوّن العجائبي، مجازها لتسهم عناصر أخبار المجموعة جميعها ببناء هذا المجاز.

الهوامش والإحـــــــالات

(١) د. عبد الله إبراهيم، التاريخ السري للروايـــة العربيـــة، مـــج (عمّـــان) الأردنيـــة، ع٧٨/٢٠٠١:٦٦

(٢) م.ن

(٣) د. لؤي حمزة عباس، سرد الأمثال، إتحاد الكتاب العرب، دمشق٢٠٠٣:٢٠٥

(٤) ينظر: د. عبد الله إبراهيم، التلقي والسياقات الثقافية، دار الكتاب الجديد المتحدة، دار أويا للنشر، د.ت:١٤

(٥) د. لؤي حمزة عباس، م.س:٢٤

(٦)إبن قتيبة، الشعر والشعراء، طبعة السقا بمصر ١٩٣٢م :١٠٧

(٧) الأصمعي، الإشتقاق، دمشق ١٩٥٤م:٣٠٣

(٨) الطبري، جامع البيان في تفسير آي القرآن، دار المعارف، مصر ١٣٧٤هـــ : ١/ ٥٦٤ــ٥٦٦

(٩) د. عبد الحفيظ السطلي، ديوان أمية بن أبي الصلت، المطبعـــة التعاونيـــة، دمـــشق ط٢/١٩٧٧: ٧٣

(١٠) حينما سمع الرسول قول أمية:

رجل وثور تحت رجل يمينـــه والنسر للأخرى وليث مرصـــدُ

قال: صدق أمية هذه صفات حملة العرش.

– أحمد بن حنبل، مسند أحمد، تحقيق أحمد محمد شـــاكر، دار المعـــارف، مـــصر ط٤/١٩٥٤م: ٨٨/٤

– أبو الفرج الأصبهاني، الأغاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت: ١٢٩/٤

وهي الطبعة التي تعتمدها الدراسة في مراجعة أخبار أمية: ١٢٠/٤ –١٣٣

(١١) طه حسين، في الأدب الجاهلي، دار المعارف بمصر د.ت، د.ط:١٣٣

(١٢) تزفتين تودوروف، مدخل إلى الأدب العجائبي، ترجمة الصديق بوعلام، مراجعـــة محمد برادة، دار شرقيات القاهرة ١٩٩٤: ٨

(١٣) م.ن: ٥٧

(١٤) أحمد السماوي، الغرائبي في الإقصوصة وإشكالية المنهج، مج (الإقلام) العراقيـــة، ع٢/١٩٩٩: ٢٤

(١٥) يشيرتحقيق (الأغاني) إلى أن الجملة في سائر الأصول: (قالت) أي أخته.

– ينظر: الأغاني: ٤/ ١٢٧

(١٦) ينظر: جيرار جينيت، خطاب الحكاية، بحث في المنهج، ترجمة محمد معتصم، عبد الجليل الأزدي، عمرحلي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ط٢/ ١٩٧٧م: ١٨٥–١٨٧